الخاتمة

لقد تم وصف الجامعات بأسلوب هزلي بوصفها عدداً كبيراً من الأقسام المتصلة مع بعضها بعضاً فقط عن طريق البحث عن موقف مناسب للسيارات. وبكل تأكيد هناك قوى نابذة تهدّد بتحويل بعض الجامعات إلى خليط فوضوي، لكن يجب مقاومة تلك القوى إن كانت الجامعات ستستمر ببقائها جامعاتٍ. وبدقة أكثر وعلى نحو أكثر تفاؤلاً، يمكن تشبيه الجامعات بنظام كبير ومعقد حيث يخدم كل جزء فيه مجمل الأجزاء الأخرى بطريقة ما، بالإضافة إلى مصالحه الخاصة.

فالمتخصصون في العلوم الإنسانية بحاجة للعلماء الاجتماعيين، والعلماء الاجتماعيون بحاجة للمختصين في علم الأحياء، والمختصون في علم الأحياء بحاجة للكيميائيين، والكيميائيون بحاجة للفيزيائيين، وتحتاج جميع العلوم وأغلب العلوم الاجتماعية إلى المختصين في علوم الرياضيات. وسواءً أعرفوا ذلك أم لا، فإن الجميع بحاجة إلى الفلاسفة، ولا سيّما المختصين في علم الأخلاق. ومن ثَمّ مَن يحتاج إلى المختصين في العلوم الإنسانية؟ علّق أحد زملائي ذات مرّة بأن دور المختصين في العلوم الإنسانية في الجامعات البحثية، كان متمثلاً بمنع العلماء «من أن يكونوا واثقين جداً من عملهم». وهذا هدف قيّم، لكنني سأضيف أنه ينبغي أيضاً على المختصين في العلوم الإنسانية مساعدتنا جميعاً لفهم معنى أن تكون إنساناً. لكن ماذا عن الفنانين؟ أودّ القول إنّ بإمكانهم أيضاً مساعدتنا في فهم طبيعة التجربة الإنسانية وربما إلهامنا لجعلها أفضل.

إن جميع هذه الاحتياجات المعتمدة على بعضها هي ما يجعل الجامعة ضرورية، وما يجعل منها نظاماً منفرداً بالفعل يضم عدداً من الأجزاء المترابطة فيما بينها. فخسارة أيّ جزء من الأجزاء تعني خسارة الجامعة. كما أن عزل أي جزء عن بقية الأجزاء يعني أن المؤسسة ستصاب بالشلل في نهاية المطاف، أو أنها ستنمو على نحوٍ ضيق وفطري إلى حدّ بعيد. والنمو ضمن إطار ضيّق لن يُنتج إلّا الأغبياء في نهاية الأمر.

لذلك فإن مهمة المسؤولين الإداريين هي جمع هذه الأجزاء مع بعضها بطريقة تفسح المجال أمام جميع الأجزاء للقيام بإسهاماتهم الملائمة تجاه الوحدة الكاملة. فهم

يُعدّون لاصقاً يضم جميع هذه الأقسام ومواقف السيارات التابعة لها ضمن وحدة كاملة عاملة. وهم يمثلون «سياسة مقاومة الفوضى». وبحسب ما تتطلبه الظروف، نجد أنهم القادة أو الأشخاص المخوّلون، الذين يساعدون هيئة التدريس في تنفيذ مهامها المتنوعة. وهم يعالجون مسألة الروتين والبيروقراطية، ويتلقون الانتقادات، ويبحثون عن الطرق والوسائل ويعملون على تنظيمها. ويقدّمون القيادة -أو على الأقل التنسيق والترابط المنطقي- في تطوير البرامج الجديدة، والمناهج الدراسية الجديدة والتوجهات الجديدة للأبحاث. كما أنهم يضمنون وجود مقاييس التميّز في التعليم والبحث على حدّ سواء. ويقدّمون في كثير من الأحيان تسوية حاسمة بين أفكار هيئة التدريس اليائسة.

ولا توجد جائزة نوبل أو بوليتزر أو جوائز أخرى للمسؤولين الإداريين الأكاديميين. لكن يجب أن يُدرك كثير من أعضاء هيئة التدريس الذين فازوا بجوائز كهذه وامتيازات أخرى، أن الأشخاص الذين وظّفوا هيئة التدريس (بمن فيهم الفائزون بالجائزة)، وأداروا الموازنات، وجهّزوا المكتبات البحثية وأنظمة الحاسوب، وتأكّدوا من أن الإضاءة وأنظمة التبريد والتسخين كانت تعمل، ووجدوا الطلاب المؤهلين والمعيدين وقبلوا بهم، وساعدوا أعضاء هيئة التدريس عبر عشرات الطرق للقيام بعملهم، يستحقون بعض الشكر والامتنان على إسهاماتهم في توجيه الدعم.

وباختصار، فقد تبيّن أنّ الجامعة في مجتمعنا ليست برجاً عاجياً فقط مع كل ذلك. فالجامعة لديها كل المشكلات والحماقات، وكل الرؤية الواسعة المنفتحة وقصر نظر العقول ضيّقة الأفق، وكل النزاهة والغش لما نسميّه - لسبب ما - العالم الواقعي. وأنا مستعد للمجادلة بأنّ الجامعة واقعية مثلها مثل أي جزء آخر من عالمنا. وقد تكون رسالتها كونها وصيّاً ومولّداً ومورّداً للمعرفة رسالةً أسمى من حيث القيمة مقارنةً برسالة أغلب المنظمات البشرية الأخرى، لكنها يمكن أن تعاني من العيوب البشرية نفسها مثلها مثل أيّ مشروع إنساني آخر. أمّا أولئك الأشخاص المولعون بالتعقيد فقد يصفون طبيعة الجامعة ورسالتها بأنها مثالية ساذجة، لكن إذا لم تكن المثالية مناسبة للجامعات، فأين يمكن أن تكون المثالية؟ ومن دون وجود بعض المقاييس المثالية، فإننا سنعيش في عالم كئيب جداً بكل تأكيد. وسيعمل المسؤول الإداري الأفضل على إبقاء عينيه مفتوحتين؛ ليرى

الحقائق المخيبة للآمال في بعض الأحيان والملازمة لأي محاولة إنسانية، لكن ستبقى لديه معرفة راسخة برؤية مثالية لما يمكن أن تكون عليه الجامعة أو ما يجب أن تكون عليه. ثق بالجميع، ووزّع الأدوار، ومن ثم تعامل معهم، وراهن عليهم، وانظر إلى نوع المساعدة التي حصلت عليها. وإذا كانت المساعدة كافية في كثير من الأحيان، فإنها ستكون مساعدة جيدة إن تمكنت من البقاء داخل اللعبة، لكن بعد ذلك عليك أن تتذكّر طبعاً أن هذه ليست لعبة، وإنما شيء جدّي. فالمجتمع، وطلابنا بحاجة للمديرين الإداريين الذين سيديرون الأمور بصورة جيدة.

opeikandl.com